نوفيلا
Des:Wisso
رجل شرقي
كبرياء
منال سالم
الروايات الرومانسية

كبرياء رجل شرقي

بقلم : منال سالم

تصميم غلاف : wissa

تصميم الداخلي : wissa

التعبئة و التنسيق : 7ouba

وقف شامخاً بجسده الرياضي - والذي إعتاد الإعتناء به لسنوات بحكم وظيفته العسكرية وولعه بالرياضة – يصافح الموجودين بفتور جلي .. ولكن مع إختلاف كبير ، فتلك المرة كانت ملامح وجهه السمراء و الهادئة التي عهدها الجميع منه إلى حد ما متجهمة وعابسة ..

تلاشت الإبتسامة الصافية من على ثغره ، وحل محلها تشنجات جلية برزت على ذقنه الحليقة.. يبدو كمن كبر عشر سنوات للتو ، فلم يعدْ يبدو في الثلاثينات من عمره ..

كانت عيناه البنيتين حزينتان رغم تجمد العبرات بهما .. فمن فقده ليس إلا أغلى ما عنده ..

رفع هو أصابعه لمسح شيء ما قد علق بأهدابه الكثيفة ، ثم مـد يده ليصافح أحد الواقفين قبالته والذي مد يده له للتو ..

-البقاء لله سيادة المقدم قاسم

بصوت رخيم وآسف أجابه دون أن ترمش عينيه التعيستين بـ :

-شكراً لك

ثم أشـار له بكف يده ليدلف إلى داخـل سرداق العزاء المقام في الجزء الخلفي من منزله المكون من طابقين ، والموجود في منطقة صحراوية قريبة من مدينة العلمين الجديدة ..

إستقبل الجميع خبر وفـاة والد المقدم قاسم السمان بحزن بالغ ، فقد عُرف عن هذا الرجل بمدى تواضعه وأخلاقه الكيسة ، وحسن سيرته .. فلم يدخـر أي أحد

وسعه في الحضور لسرادق العزاء ، والقيام بواجبه رغم بعد المسافة عن العاصمة القاهرية ..

حتى زملائه وقادته في الوحدة العسكرية المتواجد بها قد جاءوا أيضاً لمواساته ومشاطرته أحزانه ...

رفع عينيه للأعلى ، وأخـذ نفساً عميقاً وحبسه بداخل صدره حتى يتمكن من ضبط إنفعالاته أمام المتواجدين ..

لمح طيف سيارة حمـراء – ذات ماركة شهيرة - مسرعة تخترق الطريق ، فزفر أنفاسه الحبيسة غاضباً ..

حيث تردد بآذانه سبب وفاة والده ، حـادث سير .. حيث إرتطم جسده المنهك بسيارة طائشة يقودها سائق ثمل بسرعة جنونية ، فلم يتمكن من تفادي أبيه ..

كـــور قبضة يده بقسوة ، وضيق عينيه الغاضبتين ، وحدث نفسه بخفوت بـ :

-سيطر على غضبك يا قاسم ، فالعدالة إقتصت من قاتل أبيك ، وسوف ينال جزائه ..

صـــر على أسنانه في حنق ، وهو يتابع حديث نفسه بـ :

-ولكن هناك سائق أخـر غير عابيء بأرواح الأبرياء يسارع لقتل شيخ ما ، لعنة الله على أمثالهم ..

نكس رأسه للأسفل ، وضرب الأرض بقدمه ، وجاهد ليصرف ذهنه عن التفكير في ذاك السائق ..

***

كان قاسم ممتناً لقائده الذي أعطاه أجازة (شبه) مفتوحة حتى يتخطى تلك الأزمة بسلام ، ففقدان والده

وسنده ليس بالأمـر الهين ، خاصة وأنه قد تلقى خبر وفاته وهو في أحد تكليفاته ..

استوعب الأمـر بهدوء ، وتواجد ليدفن أبيه بصلابة رغم العاصفة الهوجاء الدائرة بداخله ، ورغبته في إقتلاع روح من قتله .. وكيف لا يثور وهو والده الذي تولى رعايته منذ رحيل أمه وهو في عمر صغير .. ولم يكفْ يوماً عن إغداقه بالعاطفة والحنان ..

وها هو اليوم ينفذ وصيته الأخيرة له ، والتي أوصاه بها عدة مرات ، فحفظها عن ظهر قلب

((يا بني ! إن متْ ، فقم بدفني بجواري بيتي ، لا تدفني بعيداً عن الأرض التي نشأت بها ، فأنا أحب أن أكون إلى جوار أمك))

إبتلع ريقه بصورة بالغة ، وبذل مجهوداً مضنياً ليكبح عبراته ويمنعها من الإنهمـار حتى لا يبدو ضعيفاً أمـام

غيره ، فكبرياؤه يمنعه أن يكون كأولئك الذين ينهارون فور فقدان عزيز لديهم ..

تعجب معظم الحاضرين من حالة الجمود المسيطرة عليه ، فالجميع يعرف بمدى إرتباطه الوثيق به ، ويبرر البعض حالته تلك بـ :

-هذا من شيمه ، أن يكون صلباً في أحلك المواقف

أضاف أخر بنبرة خافتة :

-ربما لا يريد أن يظهر حزنه أمامنا

أشار ثالث بعينيه وهو يتحدث بصوت هامس :

-دعونا من الأمر ، هذه طبيعته

تسائل الأول بفضول وهو يقطب جبينه بـ :

-وماذا ستظنه سيفعل بعد هذا ؟

إنتبه أحدهم لمراقبة قاسم لهم ، فنهرهم محذراً بـ :

-رجاءاً يكفي الحديث الآن عنه ، فهو ينظر إلينا

عم الصمت بينهم بعدما تأكدوا من متابعة قاسم لهم ، وخاصة حينما حدجهم بنظرات قوية محذرة ..

إقترب شخص ما ذو ملابس عسكرية رسمية ، ومن حوله بعد الحرس الخاص به ، يرتدون نفس الزي ولكن برتب مختلفة ..

مد ذلك القائد العسكري يده لمصافحة قاسم بقوة ، وشرع حديثه بنبرة صارمة بـ :

-عاهدناك صبوراً وقوياً يا قاسم ، فهذه مشيئة الله

أومأ قاسم برأسه إيماءة خفيفة ، وأردف بنبرة جادة بـ :

-أعلم هذا سيدي ، فقط أمهلني يومان وسأعود لوحدتي العسكرية

ربت قائده العسكري على كتفه ، ونظر له بحنو وهو يتابع بـ :

-سأنتظرك .. !

-بالطبع سيدي

ثم أضاف القائد بصوت جاد :

-تذكر أن كلنا راحلون

لم تتبدل تعابير وجهه الجامدة كثيراً ، ولكن بصوت شبه مختنق أجابه بـ :

-أعرف هذا .. !

ثم أشار بيده بعد أن أطرق رأسه قليلاً للأسفل قائلاً :

-تفضل إلى الداخل سيدي

***

على الجانب الأخـــر من الطريق الصحراوي ، تملكتها العصبية المفرطة وهي تحـاول إدارة محرك السيارة الحمراء الذي تعطل بها دون سابق إنذار ..

ضربت بيديها الناعمتين على المقود بإنفعـــال ، وإلتفتت حولها بطريقة مريبة ، وهتفت صارخة بضيق بـ :

-هذا أسوأ يوم في حياتي !

نزعت المفتاح من مكانه ، ثم ترجلت من السيارة لتظهر منها شابة جميلة في منتصف العشرينات من عمرها ذات بشرة خمرية لامعة ذات طول متوسط ، وعينين عسليتين ، وشعـــر معقوص للخلف كذيل حصـــان ما عدا بعض الخصلات المتروكة لتنسدل على وجنتيها ..

كانت تلك الشابة ترتدي فستاناً أسود اللون مناسباً للسهرات المسائية يصل إلى ركبتيها ضيقاً من الأعلى ، وينسدل بوسع قليل من الأسفل ، ذو أكتاف عريضة ،

وفتحة صـــدر مثلثة كبيرة تبرز مفاتنها الأنثوية الطاغية .. ووضعت حول عنقها عقداً فضياً به دلاية صغيرة ، أما أذنيها فقد تجملتا بقرطين من نفس اللون الفضي ولكن على هيئة حلقات كبيرة مفرغة ..

ركلت هـــالة الباب بعنف بقدمها الرقيقة ذات الحذاء ذو الكعب العالي ، وتحركت في إتجاه مقدمة السيارة بغضب بادي على تعبيرات وجهها ..

بقوة هائلة كافحت لتنزع الغطاء لتنظر إلى محرك السيارة ..

سعلت لعدة مرات بسبب تصاعدة أدخنة ما كثيفة فور نزعها إياه .. لذا تراجعت مبتعدة عن السيارة ، ومـــالت بجسدها للأمـــام وإستندت بكفيها على ركبتيها ، وحدثت نفسها بصوت مختنق بـ :

-ما هذا الدخـان ؟ كح .. كح .. أكـاد أختنق منه ... كح كح

ثم وضعت يدها على جبينها لتزيح خصلة إلتصقت به ، ومررت إصبعيها على شفتيها الملونتين بأحمـر الشفاه المميز لتمسح ذاك اللعاب الذي تجمع بزاوية فمها

إعتدلت هـالة في وقفتها ، وإلتفتت برأسها للخلف لتنظر إلى سيارتها بضيق ، ثم أردفت بضجر :

-كيف سأعود الآن ؟ لقد تعطلت السيارة في هذا الطريق النائي ، فمن سيساعدني إذن ؟

نظرت حولها بنظرات متفحصة محاولة إكتشاف المكان الذي تتواجد به ..

كان الطريق الصحراوي شبه خاوي من السيارات ، بالإضافة إلى أن أعمدة الإنارة لم تكن تعمل بشكل جيد .. فبدى الطريق مظلماً موحشاً ..

أدركت هي حقيقة مفروغ منها .. أنها بالفعل بمفردها فسرى في بدنها قشعريرة باردة و مفاجـأة ، لذا ضمت ذراعيها إلى صدرها ، وتحسست بكف يدها عضدها الأيمن ، ثم سـارت عائدة إلى السيارة بخطوات أقرب إلى الركض ..

فتحت بابها ، وألقت بجسدها على المقعد ، ثم تأكدت من غلق القفل الإلكتروني ، واصبحت حبيسة سيارتها بإرادتها..

أمسكت هالة بحقيبة يدها الجلدية الموضوعة على المقعد المجاور ، وفتشت بداخلها عن هاتفها المحمول ، ولكن للأسف كانت بطاريته قد نفذت ، فأصبح لا فائدة منه ..

أطلقت هي سبة وهي تليقه من يدها بدون إكتراث ...

أخـذت نفساً عميقاً ، وزفرته على عجالة ، ثم حدثت نفسها بحيرة بـ :

-ماذا سافعل الأن ؟

نفخت مجدداً من الضيق ، ودارت برأسها لتتأمل الطريق من داخل سيارتها ، ثم أردفت بصوت منزعج بـ :

-النحس يلازمني اليوم ، لم أتمكن من حضور الحفل ، وسيارتي تعطلت ، وهاتفي لا يعمل ، وفسدت مساحيق التجميل

ثم ضربت بقبضتيها على المقود ، ولكن بعنف تلك المرة وهي تصرخ متذمرة بـ :

-أي حظ تعس أكثر من هذا

تأوهت من الآلم ، فقد كانت الضربة قوية ، لذا فركت بأصابعها رسغيها ، وعضت على شفتها السفلي ، ثم هتفت بصوت محتقن :

-لن أظل قابعة في مكاني هذا للأبد ، علي أن أجد حلاً سريعاً

ثم نظرت حولها بريبة وخوف ، وحدثت نفسها بتوجس بدى واضحاً وهي تنطق بـ :

-والا لن يعثر عليّ أي شخص في هذا المكان المقفر

فكرت للحظات فيما ستفعله ، ثم طرأ ببالها فكرة ربما غير مناسبة ، ولكنها كانت الحل الأمثل من وجهة نظرها حالياً ، فصاحت متحمسة بـ :

-عليّ أن أصل إلى محطة البنزين التي لمحتها في طريقي ، ربما سأجد ميكانيكي بها يساعدني في إصلاح تلك الخردة العفنة

وبالفعل جمعت متعلقاتها الشخصية المبعثرة في حقيبة يدها الصغيرة و باهظة الثمن ، ثم ترجلت من السيارة ،

وتأكدت من غلقها ، وعلقت السلسلة الفضية الخاصة بحقيبتها على كتفها .. وسارت بخطوات قوية عكس الطريق في إتجاه ما ظنت أنها محطة تعبئة البنزين ....

***

استأذن القائد العسكري بالإنصراف ، فتبعه قاسم إلى سيارته الجيب ، ووقف إلى جوار الباب ، وسلط أنظاره عليه ، وأصغى له بإنصات وهو يمليه أوامره بـ :

-يا قاسم ، أنت رجل المهام الصعبة ، وأنا أعتمد عليك ، فلا تخذلني

ظهر شبح إبتسامة مصطنعة على زاوية فم قاسم الذي تحدث قائلاً :

-إن شاء الله

-أدعك في حفظ الله

ثم ربت على كتف قاسم ، وركب بداخل السيارة ، وأشـــار لسائقه لكي ينطلق به ..

***

في نفس التوقيت ، وصلت هالة إلى مسافة قريبة من المكان المنشود .. كانت حـالة من الغضب والضيق تسيطر عليها تماماً ..

فقدميها تؤلماها بسبب الحذاء العالي الذي إنتعلته ، غير العرق الزائد الذي أفسد فستانها وجعله يلتصق أكثر بجسدها .. فشعرت بعدم الإرتياح ، والرغبة العارمة في الإنفجـــار في أي شخص يحدثها الآن ...

تعثرت قدميها وهي تسير على الحصوات الصغيرة ، فإنكفـأت رأساً على عقب ، وإلتصق جسدها بالأرض الخشنة ، وتغبر فستانها المنمق بالرمـال ..

وكـــأن بركان ثائر قد إنفجر لتوه ، حيث أصدرت زمجرة غاضبة وهي تكز بعنف على أسنانها ، وكورت قبضتي يدها في حنق وضربت بها الأرض .. وأصدرت أنيناً متشنجاً وهي تصرخ بإنفعال بـ :

-إنه يوم أسود بحق ، ألا يكفي ما مررت به ليتنهي بي الأم هكذا ، لعنة الله على ذلك المكان

أسندت مرفقيها على الرمـــال ، وإعتدلت في جلستها ، وأخذت تنفض عن ذراعيها وصدرها وكذلك عنقها الرمـــال التي إلتصقت بها ..

مسحت بساعدها جبينها ، ونفخت بغضب في الهواء ، وحدثت نفسها بنبرة محتدة بـ :

-لقد فسد كل شيء ، حتى مظهري !

زفرت بصوت غاضب وهي تنهض عن الأرض ، ثم مالت بجسدها للأمـام لتنظف ركبتيها وكذلك أسفل فستانها ..

ثارت ثائرتها مجدداً حينما وجدت كعب حذائها قد إنتزع ، فهدرت عالياً بعصبية زائدة بـ :

-حتى الحذاء يأبى أن يكون في صفي اليوم

نزعت الفردة الأخـرى من قدمها ، وأمسكت بهما بيدها اليمني ، وسـارت تعرج قليلاً نحـو المنزل البعيد ..

صرت على أسنانها وهي تحدق في المكان الذي تتجه إليه بتوعد بـ :

-أرجو أن يكون بهذه المحطة من يصلح السيارة ، وإلا سأصب جام غضبي عليهم ، فقد إكتفيت !

نفخت هالة غاضبة حينما رأت الواجهة الأمامية للمحطة بعد أن دققت النظر جيداً فيها ، وأمعنت في تصاميم شرفتها البسيطة ، وكذلك في التصميم العام للمبنى الصغير ، ثم صرخت محتدة :

-هذه ليس محطة للبنزين ، بل .. بل منزل عتيق !

ضربت بقدميها العاريتين الأرض بعنف ، فشعرت بأثر الألم الموجع عليها ، فتأوهت متألمة ، ورفعت قدمها اليسرى للأعلى لتتحسس موضع الألم ، وأردفت بضيق جلي :

-آوه .. كل شيء سيء ، ومؤلم ، ماذا أفعل ؟

أنزلت ساقها على الأرض ، وتلفتت حولها محاولة التفكير في حل ما .. ولكن تجمد عقلها ، وصارت غير قادرة على التصرف ..

كانت على وشك الإنخراط في البكاء ، ولكن منعها عن فعل هذا عنادها ..

ثم إستمعت إلى صوت همهات رجولية تأتي من الخلف ، فركزت حواسها لتحدد مصدر الصوت ..

ثم حدثت نفسها بإصرار :

-عليّ أن أجد من يساعدني في تلك الورطة

أعادت ترتيب هندامها مجدداً ، وأمسكت بالحذاء في يدها ، وعدلت من سلسلة حقيبتها على كتفها ، وأزاحت بكف يدها الخصلات الملتصقة بوجنتيها لخلف أذنيها ، ثم إنتصبت في وقفتها ، وسارت بخيلاء إلى خلف المنزل ...

لمحت طيف شخص مـا ضخم البنية يرتدي حلة سوداء رسمية يسير أمامها ، فأسرعت في خطاها ، ولوحت بيدها في الهواء ، وهي تصيح عالياً بـ :

-يا هذا ! إنتظر !

إنتبه قاسم إلى ذلك الصوت الأنثوي المرتفع والذي يأتي من خلفه ، فرفع عينيه القاتمتين للأعلى ، وإستدار برأسه بحذر للخلف قليلاً ..

إزداد إنعقاد ما بين حاجبيه ، وكذلك العبوس والتجهم على قسمات وجهه حينما رأى تلك الشابة أمامه ..

كانت هيئتها ملفتة للغاية ، ملابسها الصارخة ، جسدها الفاضح .. وغيرها من الأمور التي تسلب عقل أي رجل عاقل ..

وضعت هالة يدها في منتصف خصرها ، ومدت ساقها قليلاً للأمـام ، وحدجته بنظرات مهينة قبل أن تنطق بصوت قوي بـ:

-أنا أحدثك ، هل أنت أصم يا هذا ؟

-ماذا تريدين ؟

سألها قاسم بثوت حـازم وقوي ، وهو يحدجها بنظراته الحانقة ..

بنبرة إزدراء ، ونظرات مهينة أجابته بـ :

-أريد صاحب هذا المكان الخرب لإتحدث معه ؟

نفخ قاسم بغضب ، وتحولت عينيه لجمرتين ، ونظر لها بشراسة ، وتحرك صوبها وهو يجيبها بصوت غاضب بـ :

-أنا هو

ثم أخفض صوته ليتابع بحنق من بين أسنانه وهو يتجه إليها بـ :

-يا سليطة اللسان

فغرت هالة شفتيها في صدمة ، ونظرت له بذهول ، وأرخت ذراعها عن خصرها ، وإنكمشت إلى حد ما في نفسها .. وشعرت بقشعريرة تهاجم جسدها الساخن عقب صوته الصارم ..

استجمعت شجاعتها قبل أن تفر منها ، وقالت بصلابة :

-أريد منك خدمة

رمقها بنظرات ساخطة قبل أن يجيبها ببرود :

-أسف ، لا يمكنني

اتسعت عينيها بصدمة ، وهتفت معترضة :

-ولكني لم أقل لك !!!..

قاطعها قاسم ببرود أشـد وقد وقف قبالتها وحدجها بنظرات إشمئزاز :

-عفواً ، لا يمكنني الحديث معك هنا !

ثم أشـار بعينيه الداكنتين لجسدها ، وهو يتابع بتأفف بـ :

-وخاصة بسبب ملابسك تلك

ضيقت هي عينيها في حنق ، وتملكها الغضب ، ثم حدجته بنظرات شرسة وهي تهتف بإنفعال :

-ما بها ملابسي ؟

أجابها قائلاً بصوت خافت ولكنه حـاد في نفس الوقت :

-ألا ترين ؟

كورت قبضت يدها ، ورفعتها أمام وجهه وكأنها على وشك لكمه ، وصرت على أسنانه وهي تعنفه بـ :

-يا لوقاحتك ! كيف تجرؤ أن تتحدث هكذا معي ؟!!

أمسك هو بقبضتها التي إختفت بداخل راحته ، وأنزلها عنوة للأسفل ، ثم قرب رأسه منها ، ونظر لها بقوة ، ثم قال بتشنج :

-لولا أن اليوم عزاء والدي لتحدثت معكِ بأسلوب لا يليق إلا بأمثالك التافهين !

إتسعت مقلتيها أكثر ، وكادت أن تخرجا من محجريهما ، ثم إبتلعت ريقها في توجس ، وحاولت أن تستفهم منه ما يقول ، فخرج صوتها مضطرباً ومتلعثماً :

-مـ... ماذا ؟ عـ... عزاء والدك

أجابها سريعاً دون تردد بحدة بـ :

-نعم ، ألا ترين ؟ أم أنكِ أصبحت عمياء فجـأة

دققت هي النظر خلف كتفه ، فرأت سرادق العزاء ، فإنفرج ثغرها مذهولاً للأسفل ...

راقب عدد من المتواجدين بالسرادق ما يحدث بين قاسم وتلك المرأة الغريبة ، وتملكهم الفضول لمعرفة تطورات الوضع معهما.. فلو حدثت المشادة الكلامية في وقت ما غير هذا الظرف ، لربما مر الأمر على خير ، وتم توضيح سوء الفهم .. ولكن قاسم في قمة أحزانه ، ويصعب التنبؤ بحالته النفسية الآن .. فمن المتوقع أن يتطور الوضع كثيراً ..

أمسك قاسم بها من ذراعها ، وضغط عليه قليلاً ، ثم تحرك بها عنوة في اتجاه الباب الأمامي للمنزل وهو يأمرها بصوت رجولي خشن :

-تعالي معي

حاولت هالة أن تنتزع ذراعها من قبضته ، ولكنها فشلت ، فقالت بصوت حاد :

-أوه أنت تؤلمني

أرخى هو قبضته عنها ، ونظر لها من طرف عينه بنظرة قوية ، ثم قال بخفوت:

-أعتذر منك

جذبت هالة ذراعها بعيداً عنه ، وضمته إلى صدرها ، وسارت إلى جواره بحذر ، وإلتفتت برأسها قليلاً ناحيته لتنظر له بتوجس ..

إبتعلت ريقها مرة أخرى ، وحاولت أن تبدأ معه أي حديث ، لكن الكلمات هربت من على شفتيها ، فإكتفت بالصمت ..

توقف قاسم أمـــام باب منزله الرئيسي ، ونظر إليها بإزدراء متأملاً هيئتها من رأسها لأخمص قدميها ، ولم يكفْ لوهلة عن حدجها بنظرات متأففة ، ثم سألها بجمود بـ :

-ماذا تريدين ؟

تنحنحت هي في خجل من نظراته التي فهمتها على الفور ، وشبكت أصابع يديها معاً ، ونظرت له بإرتباك ممزوج بالحيرة ، فهي لم تعتدْ من قبل أن يتعامل أحد معها بقسوة وفظاظة ..

نعم ، فهي تلك المدللة معشوقة الرجال ، تلك التي يسعى الجميع للتودد إليها ، ونيل رضاها وإستحسانها ..

واليوم ذاك الغريب يعاملها كما لو كانت نكرة ، جمالها لا يغريه على الإطلاق ، نظراته الحادة تشعرها بحقارتها ، وأنها عارية أمامه ..

صاح مجدداً فيها بصوت آمـر حينما وجدها صامتة بـ:

-أنتِ ، ماذا تريدين مني ؟

أفاقت هي من شرودها ، وأجفلت عينيها للأسفل ، وأجابته بتوتر ملحوظ في نبرة صوتها :

-أعتذر منك عن .. عما .. آآآ

رفع قاسم كف يده في وجهها ليقاطعها عن إكمـال جملتها ، وتابع بجمود :

-من فضلك أخبريني عن سبب تواجدك هنا وتطفلك عليّ في هذا الوقت الحرج

نكست رأسها للأسفل ، وقوست فمها للجانب ، ثم أجابته بخفوت بـ :

-لم .. لم أقصد أن أتطفل ، ولكن .. تـ.. تعطلت سيارتي وآآ..

ثم رفعت عينيها لتنظر إليه بحذر .. أرادت أن تكمل باقي عبارتها ، ولكن شيء ما غريب جعلها تنظر إليه بتعجب ، فهو ليس كبقية الرجال ، فيه لمحة تفاخر .. شيء من العزة والكرامة .. صفة لم تجدها فيمن حولها ..

راقبها قاسم دون أن يظهر عليه أي تأثير منها ، فهو يزدري تلك النوعية من النساء الغير مباليات إلا بجمالهن ، حاول قدر المستطاع أن يكون صبوراً معها ..

تنهد في إنهاك بعد أن لاحظ طول صمتها ، ثم سألها بصوت رخيم :

-أكملي ! ماذا بعد تعطل سيارتك

تنحنحت بخفوت ، وأجابته بنزق :

-إحم .. معذرة ، كنت أبحث عن .. عن ورشة ما لإصلاح السيارة ، و.. وظننت أن منزلك هذا هو محطة للبنزين حينما مررت بسيارتي الحمراء من على هذا الطريق وآآ..

لمعت عيناه بالغضب بعد جملتها الأخيرة ، وسألها بصرامة :

-هل تلك السيارة السريعة تخصك ؟

هزت رأسها موافقة وهي تجيبه بصوت خافض بـ :

-أهـا ..

تعجبت هي من نظراته الغاضبة نحوها ، وعجزت عن تبرير سبب حنقه عليها ، فهزت كتفيها في عدم إهتمام ،وقالت بنبرة غير مبالية :

-لقد علقت في هذا الطريق المظلم !

ثم صمتت للحظة قبل أن تتابع بصوت شبه منزعج بـ :

-فلو كان الأمـر بيدي لكنت طرت بها عائدة إلى القاهرة دون أن أنتظر للحظة هنا ساحقة كائن من كان بعجلاتها

وكأن كلماتها الأخيرة كانت كعود الثقاب الذي أشعل دلو البنزين .. حيث زمجر بعنف في وجهها بـ :

-كفى ، ألا تهتمين بأرواح الأبرياء ؟ ألا يؤنبك ضميرك للحظة أنكِ ربما توشكين على زهق روح بريئة بسبب طيشك

-مـ.. ماذا ؟

-ألا يقلقك ان تتسببي في حزن عائلة بأسرها ؟

-عن أي شيء تتكلم ؟

-حمدلله إني أحافظ على أخــر ذرة في صبري ، كي لا أفعل ما أندم عليه لاحقاً

-أنا لم أقصد أن ..

زفــر غاضباً ، ثم صر على أسنانه ، وكافح للسيطرة على إنفعالاته الزائدة ..

دفع باب منزله بيده ، ثم أشــار لها بكفه وهو يحدثها بهدوء حذر بـ :

-من فضلك ، إصعدي للأعلى

نظرت هي له مشدوهة من تحوله الغريب قائلة :

-هــاه

أجفل عينيه المحتقنتين للأسفل ، وتابع بنبرة جافة :

-سوف أعود لكِ بعد أن أنتهي من عزاء أبي

-ماذا ؟

لم يجبها قاسم بل تركها وانصرف بخطوات أقرب للعدو مخلفاً ورائه غباراً هائلاً ..

نظرت هالة له بعدم تصديق ، فهي لم تفهم ما الذي فعلته أو قالته ليصبح بهذه الصورة الهائجة .. ثم بعد لحظة يتحول لشخص وديع هادىء ، وكأن شيئاً لم يحدث ..

تناقض غريب أصابها بالفضول والحيرة ... وحاولت أن تبرر هذا بسبب ظروف وفاة والده ..

ثم شعرت بلسعة هواء باردة تضرب كتفيها ووجنتيها ، فضركت ذراعيها لتدفئهما ، ثم ولجت إلى داخل البناية ....

بخطوات حذرة للغاية أمسكت بالدرابزون ، وصعدت عليه متجهة للأعلى ..

كان صوت المذياع يصدح عالياً بآيات الذكر الحكيم ..

تنهدت في إرهـاق وتسمرت للحظة - في مكانها – تفكر بتردد فيما ستفعله ..

حدثت نفسها بتوتر قائلة :

-كيف أصعد لمنزل لا أعرف من فيه ؟ وماذا سيقول عني أصحابه ؟

ثم أخفضت عينيها لتتأمل هيئتها ، وهي تتابع بتفكير مشحون :

-وماذا عن لبسي هذا ؟ إنه غير ملائم بالمرة ..

مطت شفتيها في إستنكار وهي تضيف بتذمر :

-أوف ، كان ينقصني هذا !

إستمرت هـالة في الصعود على الدرج إلى أن وصلت إلى مدخل المنزل في الطابق العلوي ..

وقفت مترددة على عتبته ، واطرقت رأسها في خزي ، وثنيت ساقها قليلاً ..

حاولت أن تختلس النظرات إلى الداخل ، فلمحت أطياف لعباءات وملابس لنساء تتشحن بالسواد ..

نهضت إحداهن ، وسـارت نحوها ، وتسائلت بصوت جدي رغم نبرة الحزن المسيطرة عليه :

-هل إنتِ هنا من أجل العزاء ؟

رفعت هـالة رأسها لتنظر لتلك السيدة بتمعن .. كانت تبدو في العقد السادس من عمرها .. فقد خط الزمن علاماته على وجهها الذي يمتليء بتجاعيد أسفل عينيها وحول فمها ..

أما حجاب رأسها فقد كان محكماً عليها ، يبرز فقط جزءاً صغيراً من وجنتيها ، ومن جبينها ..

بنبرة متلعثمة ونظرات مرتبكة أجابتها هي بـ :

-آآ.. في الحقيقة .. أنا آآ...

قاطعتها تلك السيدة بصوت جـاد وهي تشير بيدها :

-حسناً ، يبدو أنكِ علمتِ بمسألة وفاته متأخراً ، تفضلي بالدخول

إبتلعت ريقها بتوتر ، ورسمت إبتسامة خجلة على ثغرها وهي تدلف للداخل قائلة :

-شكراً لكِ ..

شعرت هـالة بأنها محط أنظـار الجميع ، وأن الكل يتفحصها كما يتفحص الطبيب عينة ما أسفل مجهره الطبي ...

بخطى متثاقلة ولجت هي إلى حيث أشـارت تلك السيدة ، وجلست على إستحياء ، ووضعت حقيبتها على حجرها محاولة تغطية فخذيها البارزين من أسفل فستانها ..

وتجنبت على قدر الإمكـان أن تلتقي أعينها بأي واحدة ..

مر الوقت بطيئاً عليها ، فشعرت بالضجر المصحوب بالملل .. ولكن ما بيدها أي حيلة .. فهي مجبرة على المكوث حتى يصعد إليها صاحب المنزل وترى معه أي حل لمعضلتها ..

-خالة نعيمة ، أريدك هنا !

هتفت إحدى الجالسات بنبرة عالية لتنتبه لها تلك السيدة الوقور ، وتتجه نحوها ، وتتجاذب معها أطراف الحديث قبل أن تتركها وتعاود الجلوس في مكانها ...

كانت معظم المتواجدات يقطن في قرية مقاربة من منزل السيد قاسم .. ويعرفونه منذ زمن بسبب مروره على السوق الدائم على السوق التجاري هناك ، وصلاته الطيبة بأزواجهن ومعارفهن .. فأتين لتلبية واجب العزاء ..

كانت هالة بين الحين والأخـر تختلس النظرات إليهن محاولة تحديد مستواهن الإجتماعي ..

ومن مظهرهن العام أدركت أنها تتعامل مع طبقة متوسطة الحال أو ربما فقيرة ..

فملابسهن السوداء قديمة وغير زاهية .. وطريقة إرتدائهن لها تدل على بساطتهن .. ومع هذا كن يجلسن بشموخ يحمل الكبرياء والعفة ..

وبالرغم من ثرائها البادي في فستانها والحلي التي ترتديها إلا أنها كانت تشعر بأنها عارية أمامهن ..

فقد رأت نظرات الإزدراء والإحتقار لها ..

تلك النظرات التي إعتادت أن تمرق بها من دُونها ..

ولكنها اليوم اختبرت شعوراً جديداً عليها .. بأنها أقل منهن بكثير ..

***

إنتهى العزاء ، وودع قاسم الجميع وشكرهم على حضورهم ، والقيام بواجبهم نحو والده الراحل ..

ثم إتجه صوب بنايته ، وصعد إلى الطابق العلوي .. حيث منزله ..

تنحنح بصوت خشن وعالي قبل أن يدلف إلى الداخل ..

وما إن رأته هالة حتى نهضت من مقعدها ، وسارت بخطوات سريعة نحوه .. ثم وقفت قبالته ، وإنتظرت أن يبدأ الحديث معها .. لكنه ظل صامتاً مما أثار حنقها ..

ضيقت عينيها في ضجر ، وسألته على مضض :

-هل رحل الجميع ؟

أجابها بصوت جامد دون أن تطرف عينيه الحمراوتين :

-نعم ..

ضيق عينيه هو الأخـــر ليرمقها بنظرات حادة قبل أن يتابع بصرامة :

-وأنتِ ستظلين هنا حتى الصباح

إتسعت مقلتيها في صدمة ، وفغرت شفتيها في ذهول وهي تسأله :

-ماذا تقول ؟

بدى صوته مرهقاً وهو يجيبها بـ :

-لقد بات الوقت متأخراً للغاية ، وأنا لا أستطيع مساعدتك الآن !

نظرت هـالة حولها بنظرات قلقة ، ثم هتفت بإعتراض :

-ولكن .. أنا .. لا أستطيع أن أبقى هنا للحظة ، لابد أن أعود إلى سيارتي ، وآآ...

قاطعها قاسم بصوت حاسم قائلاً :

-الطريق مظلم ، وأنا لن اخاطر في هذا الوقت

بنبرة تحمل الغرور والعجرفة هتفت قائلة :

-معذرة ، وأنا أيضاً لا أستطيع البقاء هنا للحظة ، فكيف تقبل أن تبقى واحدة مثلي هنا مع شخص لا تعرفه في .. في مثل هذا المكان !

وبدأت تتلفت حولها وهي تنظر بإحتقار لأثاث المنزل وما فيه ..

رأى قاسم نظراتها المستهزأة بأحب الأماكن إلى قلبه .. بالمكان الذي نشأ وتربى فيه مع أعز الأشخاص في حياته .. فأحتقنت عينيه غيظاً ، وهتف بصوت صـــارم :

-حسناً ، بإمكانك المغادرة والبقاء في الصحراء ، تفضلي !

رمشت بعينيها في عدم تصديق وهي تسأله بذهول :

-هـــاه .. ماذا ؟

تابع هو بنفس النبرة الجامدة دون أن تهتز عضلة واحدة من وجهه :

-حقاً أنا لن أمنعك إن كانت تلك رغبتك !

ثم أخذ نفساً مطولاً ليسيطر به على حالته قبل أن يزداد إنفعالاً ، وأردف بعصبية :

-ولكن بيتي هذا أمن لمثلك من البقاء في الصحراء الموحشة لوحدك مع وحوش الليل ، ولا أقصد هنا بالحيوانات ، ولكن هناك أصناف من البشر أسوأ بكثير مما تظنين !

رأت الجدية في عينيه الغاضبتين ، وأيقنت أنها إستفزته بعبارتها الأخيرة ، ولكنها حقاً خائفة ومرتبكة .. تحاول أن تبدو قوية ولكن الوضع مقلقاً بالنسبة لها ..

فهذا الغريب يعرض عليها المبيت في منزله المتواضع هذا في منطقة نائية بالصحراء ..

تحول عقلها إلى عاصفة من الأسئلة التي حاولت أن تخمن إجابتها ..

فما الذي سيحدث لها إن تعرض لها بالأذى ، أو فكر في الإعتداء عليها ، من سيمنعه عنها أو ينقذها منه ؟ وماذا

لو فكرت في العودة إلى سيارتها هل تكون آمنة لها ؟ أم حديثه عن وجود ذئاب بشرية قد يتعرضوا لها حقيقي ؟

حاولت أن تفكر سريعاً في الخيارات الموضوعة أمامها ، ولكنها عجزت عن الوصول إلى رد حاسم ..

ابتعلت ريقها في توجس وقالت بخوف كان بائناً في صوتها :

-ولكن أنا لن أنام هنا معك ..!

نظر لها بحدة وهو يجيبها بصوت غليظ يحمل التحذير وهو يشير بإصبعه :

-أنا لم أقل أني سأنام معكِ يا آنسة ، فإحذري بما تتفوهين !!

رأت عينيه وهي تمران على فستانها ببطء .. فتصلبت بجسدها أمامه ، ووضعت حقيبة يدها أمام صدرها ، ورمقته بنظرات محتقنة وهي تهتف بـ :

-هل تظن أن للأمر علاقة بملابسي لكي يبيح لك آآآ...

قاطعها بجدية عجيبة قائلاً :

-أنا لم أنظر لفستانك هذا ، ولكن هيئتك مثيرة للشفقة ، وحقاً أقولها لك بصدق ، أنا لن أقبل بامرأتي أن ترتدي مثله لأحد غيري ... فأنا رجل شرقي لي كبرياء ، ولن أتهاون في أن يتمتع غيري بما يخص امرأتي ..!

تفاجئت هي من كلماته القاسية التي تحمل التجريح في طياتها ..

ودار برأسها أسئلة عجيبة ، وحدثت نفسها وهي تنظر له بفضول بـ :

-هل حقاً هو رجل غيور ؟ هل يرغب في أن يمنع زوجته عن الإستمتاع بجمالها ؟ هذه تركيبة عجيبة !

بينما تابع هو حديثه بنفس الصلابة وهو يحدجها بنظراته القوية قائلاً :

-ورجولتي تلك تمنعني من أن أزج بامرأة مثلك في بيتي الموحش هذا !!

أثار حنقها بكلماته الأخيرة ، وإعتقدت أنه سيفعل بها هذا ..

سألته بتوتر وهي ترمقه بنظرات مرتبكة :

-أيعني هذا أنك سترميني في الطريق ؟

عقد ساعديه أمـــام صدره ، ورمقها بنظرات باردة قبل أن يجيبها ببرود قاسي :

-نعم بلا أدنى شك !

أصابها حالة من الذهول الممزوج بالخوف وهي ترى ذلك الوميض العجيب في عينيه ..

هو حقاً يعتزم هذا ؟ ولما لا يفعل وهي التي إستفزته منذ البداية ..

صمت ليتابع ردة فعلها المرتجفة ، ولم ينكر أنه شعر بأنه استرد جزءاً من كرامته حينما أشعرها بحجمها الحقيقي ..

أخذ نفساً عميقاً ، وزفره على مهل ، ليكمل بنبرة واثقة :

-ولكن حرصاً مني على سلامة روح بريئة من أن تزهق على أيدي وحوش بشرية ، فأنا أعرض عليك البقاء هنا مع خالتي نعيمة إلى أن يأتي النهار ، عدة ساعات لا أكثر ولا أقل !

-

شعرت هي بنوع من الإرتياح المصحوب الإطمئنان بعد عبارته الأخيرة ..

فعرضه مغري ، وهي لن تستطيع أن تتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لها ..

لذا دون تردد أجابته بتلهف :

-حسناً ، طالما ستكون تلك السيدة معي

وأشارت بعينيها نحو السيدة الجالسة بوجه عابس على أحد الأرائك ..

هز قاسم رأسه وهو يكمل بثقة :

-اتفقنا إذن .. يمكنك أن تستريحي في تلك الغرفة

نظرت هالة إلى حيث أشار هو بكف يده ، وأومأت برأسها موافقة ..

حاولت هي أن تدعي إمتنانها له ، فقالت بخوف :

-شكراً لك

لم يجبها بل هز رأسه في عدم إقتناع وأولاها ظهره ليتجه إلى تلك الخالة الوقور ..

وقف قاسم قبالة تلك السيدة وتهامس الإثنين معاً وبدى على الخالة الإنزعـاج والضيق .. وكانت ترمقها بنظرات ساخطة ..

تابعتهما هـالة بحرج ولمحت تلك النظرات في عيني هذا السيدة .. ولكن ماذا ستفعل ..

بعد دقائق معدودة كان النقاش قد إنتهى ، وسارت الخالة نعيمة في اتجاهها ، وقالت بحنو وهي تصطحبها إلى داخل الغرفة :

-تفضلي بنيتي ! أنا سأحضر لكِ ما ترتديه ، لا تقلقي ، الملابس نظيفة !

إبتسمت لها هـالة إبتسامة مجاملة ، ولم تعقب بكلمة ..

تفحصت الغرفة بنظرات متمعنة .. وزمت شفتيها في إستغراب من هيئة أثاث الغرفة القديم ..

ومع هذا شعرت بالدفيء والأمـان .. نعم فهو شعور إفتقدته في حياتها .. وهي اليوم تعيشه وتحاول أن تستمع به ..

بالرغم من كونهما شخصين غريبين عنها ، إلا أنهما كانا حريصين على سلامتها ..

بدلت هـالة ثيابها ، وإرتدت عباءة منزلية فضفاضة .. وألقت بجسدها المنهك على الفراش لتغفو في سبات عميق بعد أن أرهقها عقلها من التفكير في طبيعة هذا الشخص الغريب الذي قابل إساءتها بكبرياء عجيب ..

هي أول ليلة تنام فيها بعمق دون أن تهاب مما يمكن أن يحدث لها ..

***

تسربت أشعة الشمس الذهبية من خلف النافذة الخشبية لتضيء الغرفة بضوء خافت ..

وعلى إثره تثاءبت هـالة وهي تفتح عينيها بتثاقل ، وتمطعت بذراعيها في الهواء ..

رمشت بعينيها عدة مرات لتتأكد من أنها لم تكن تحلم .. فهي متواجدة بغرفة بسيطة في منزل متواضع ببناية قديمة في الصحراء ..

هي قضت ليلتها هنا ، ونامت بعمق دون أن يصيبها أي أرق ..

شعرت بالحيوية والإنتعاش وهي تنهض من على الفراش .. ثم قامت بتبديل ثيابها ، وتأكدت من تناسق هيئتها في المرآة الصغيرة المتواجدة بالغرفة

بخطوات حذرة إتجهت نحو باب الغرفة ، وولجت للخـارج ..

جابت بعينيها المكان ..

كان كل شيء هادئاً للغاية .. ولكن هناك رائحة طعام شهية تداعب أنفها ، فأثارت معدتها ..

تذكرت أنها لم تتناول أي شيء منذ الأمس ، وبالتالي كان شعورها بالجوع بديهياً للغاية ..

على إستحياء سارت نحو مصدر الراحة ، فرأت الخالة نعيمة وهي تضع البيض المقلي وإلى جواره الفول المتبل ومعه بعض الجبن الطازجة ، والخبز والفطائر المنزلية المحلاة على طاولة الطعام التي تتوسط غرفة الصالة ..

تنحنحت في حرج بعدما قالت لها الخالة نعيمة بهدوء :

-تفضلي بنيتي ، تناولي الإفطار

إبتسمت لها هـالة في خجل ، وأردفت ممتنة بـ :

-شكراً !

تناولت الطعام بشهية غريبة ، ولم تنطق بكلمة ، فقد كانت مستمتعة بهذا الإفطار المنزلي ..

هي لم تعد تتناول طعام الإفطـار في السنوات الأخيرة ، واليوم هي تكسر قواعدها ، وتلتهم بشراهة ما أعدته لها تلك الخالة الطيبة ..

راقبتها الخالة نعيمة بنظرات خالية من التعبير .. ثم شرعت حديثها متسائلة بصوت جاد بـ :

-هل نمتِ جيداً ؟

أومـأت هالة برأسها إيجابياً وهي تلوك الفطائر في فمها ..

تابعت الخالة نعيمة حديثها الجاد بـ :

-لم أرد إزعاجك ، وأشاركك الفراش ، فنمت بالخارج هنا !

شعرت هالة بالذنب ، وتوقفت عن مضغ الطعام ، وإبتلعته بصعوبة ، وأردفت بحرج :

-أنا .. أنا حقاً أسفة

-لم أقصد هذا بنيتي ، ولكن آآ....

قاطعتها هالة وهي تنهض عن المقعد بصوت متحشرج :

-لد تأخرت حقاً ، سأذهب لأرى ما سأفعله بسيارتي

مطت الخالة نعيمة شفتيها للأمـام ، ثم قالت بجدية :

-أظن أن السيد قاسم قد أصلحها لك

نظرت لها بإندهاش غريب وهي تسألها بفضول :

-ماذا ؟ كيف هذا ؟

لم تنتظر لتعرف إجابة سؤالها منها ، بل تحركت نحو باب المنزل ، ونزلت على الدرج لتقف أمـــام مدخل البناية وهي في حالة ذهـــول تام ..

لقد كانت سيارتها الفارهة موجودة بالفعل ..

حكت فروة رأسها في حيرة وهي تسأل نفسها بفضول بـ :

-كيف جاءت إلى هنا ؟

-معذرة !

إلتفتت هـــالة نحو مصدر الصوت لتجد قاسم يقف مستنداً بجسده على حائط بنايته ، ومثنياً لركبته عليه ..

إبتسمت له هـــالة إبتسامة رقيقة ، في حين إعتدل هو في وقفته ، وســـار نحوها بعد أن وضع يديه في جيب بنطاله الجينز ، وهتف قائلاً :

-لقد استعرت مفاتيح سيارتك بعد أن طلبت من الخالة نعيمة إحضارها لي

-هـــاه

-لقد كانتِ نائمة بعمق ، ولم تستمعي لنداءاتها المتكررة ، فإضطرت أسفة أن تفتح حقيبتك وتحضرهم لي .. وقمت أنا بواجبي وأصلحتها لك

-أنا .. أنا لا أعرف كيف أشكرك

-لا داعي لشكري

-لقد .. لقد كنت فظة معك ، وأنت آآآ...

-عفواً ، تلك هي طبيعتك ، لا داعي للتبرير ، فأنتِ تعاملتي معي بغطرسة ، وأنا عاملتك بكبرياء رجل شرقي

-ماذا ؟

-لن تفهمي مقصدي .. ولكن سيارتك جاهزة للعمل ، فإنطلقي في آمان الله !

-أنت حقاً إنسان غريب ، أنا لم أقابل مثلك في حياتي ، فعادة الكل يتملق لي للحصول على آآ..

وصمتت عن الحديث بعد أن تنحنحت في حرج ..

فهم هو مقصدها .. فهي قد أجفلت عينيها نحو جسدها ليتأكد من حدسه ..

الكل يرغب في الحصول على قطعة منها ، ولكنه كرجل لن يقبل أبداً أن يشاركه كائن من كان في امرأة تخصه .. تبيح جسدها للغرباء ليتمتعوا بالنظر إليه ..

أخذ نفساً عميقاً وزفره بهدوء وهو يكمل بنبرة رخيمة :

-لن تقابلي مثلي أبداً ! ولكن نصيحة مني لك ، قودي بحذر حتى لا تعرضين نفسك أو غيرك للخطر

-سأعمل بنصيحتك ، وسأتذكرها على الدوام

دار قاسم حـــول السيارة ، ثم فتح لها الباب المجاور لعجلة القيادة ، وأشار لها بعينيه لتركب .. وبالفعل دارت هي الأخرى حول سيارتها ، ووقفت قبالته ، ونظرت مباشرة في عينيه ، وقالت بخفوت :

-ولن أنساك أيضاً

إبتسم لها في عدم إقتناع ، وقال متهكماً :

-صدقيني ستنسي كل شيء فور رحيلك من هنا ، فما حدث هو موقف عابر في حياتك ليس إلا

قطبت جبينها في ضيق ، وهتفت محتدة :

-أنت مخطيء

إبتسم لها في غرور وهو يرد عليها بثقة غريبة :

-بل أنا واثق مما أقول ، إركبي سيارتك

جلست هي خلف عجلة القيادة ، فأغلق الباب عليها ، ونظر لها بنظرات معتدة بنفسه ، في حين بادلته هي نظرات آسفة ..

كم كانت تود البقاء لفترة أطـول لتعرف عنه أكثر .. ولكن حظها العثر جعل الأمور تسير عكس رغبتها ..

أدارت هي محرك السيارة ، ونظرت له بإمتنان وهي تضغط على دواسة البنزين ..

تحركت السيارة ببطء وهي تسير مبتعدة عنه ..

نظرت هـالة له في مرآة السيارة الجانبية ، وتنهدت في يأس وهي تحدث نفسها قائلة :

-والأكيد أني لن أنسى أبداً كبرياء رجل شرقي أثبت رجولته معي .....
!!!

تمت بحمد الله